القِسمُ الثانى

اللغة العربيّة الفُصحى.. لُغَةٌ إلهامِيَّةٌ

فى فقه العربية وبلاغاتها

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

[سورة البقرة: ٣١]

- ملاحظة: هذه ثلاثة موضوعات، أوردت فيها أدلة كثيرة (لا تَقِلُّ عن عشرين دليلا) تثبت أن اللغة العربية الفصحى «إلهامية». وهذه الأدلة لم تَرِدْ فى كتاب، فالقدامى والمحدثون، سواءً منهم الذين اعتبروا العربية إلهامية – والذين اعتبروها وضعية – لم يُوردو –لها– أدلّة تُذكر.
إنما كانوا يعبرون عن «قناعاتٍ» غيرِ مُعلّلةٍ.

الموضوع الأوّل

فى فقهِ العربيّة وبلاغتِها...[1]

اللّغة العربيّة - إلهامٌ أم مُواضعةٌ واصطلاحٌ؟

– أنــا أجــزم أنّ اللّغة العربيّة «إلهام» وليســت مُواضعة واصطلاحا، لأســباب كثيرة سنذكُرها خلال هذا البحث، شيئا فشيئا، نامَ العربُ قبل الإسلام – ليلةً – ثم استيقظوا صباحا، وإذا هم قد نسوا لغتهم التى كانوا يتكلمونها نِسيانا تاما، وأخذوا يتكلمون العربيّة الفُصحى، وقد يستغرب القارئ ذلك، ولكنى أُذكِّر بشيئين لنُخفِّف الغرابة:

الأول: قوله تعالى: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [البقــرة: ١٠٦]، إن قوله تعالى ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ يعنى أن الله تعالى أنزل بعض الآيات، لغاية مؤقتة، ثم أنساها الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكِرام رضوان الله عليهم، فلم يعد الرسول الكريم ولا صحابته الأبرار يذكرون شيئا منها. ولو كلمةً واحدةً، بل لم يعودوا يذكرون أن شيئا من الآيات نزل، ثم أنساهم الله تعالى إيّاه.

– أما ما نُسِبَ إلى مجاهد بأنه فَسَّرَ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ « أى: ما نمحو من آية، فَسَّرَهُ بأنه مثل محو آية: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتةَ»[2] فليس قولا موثقا، أى هو قــول مــردود، لأن نظْم القرآن الكريم أعلى بكثير من هذه الجملة التى لا تخلو من ركاكة، فالقــرآن كلّــه ليس فيه كلمة «ألبتةَ»، هذا فضلا عن أن «ألبتةَ» قلقة فى هذا الموضع، فهى غالبا ما تستعمل مع النفى، وليس مع الإثبات.

– يضــاف إلى ذلك (للدلالة على فَهاهَةِ هــذه الجملة) أن القرآن الكريم قال: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النور: ٢]، فقدّم الزّانية على الزانى (لأسباب ليس هنا مقام ذكرها). فكيف قدّم القرآن الزانية على الزانى فلو كان هذا القول صحيحا لما قدم الشــيخ على الشــيخة؟ إن ذلك خُلْفٌ من القول، لا يمكن أن يقع فى كلام الله جلّ وعلا،

(١) كتبت سنة – ٢٠٠٥م.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير١/ ١٠٣، دار القرآن الكريم ١٩٨١، اختصار وتحقيق محمد على الصابونى.

ثم جاء فى هذه العبارة المردودة: (إذا زنيا) والمعروف أن «إذا» تأتى للاحتمال الكبير، أمّا التى تأتى للاحتمال القليل فهى «إن»، ومن المعلوم – بالضرورة – أن احتمال زنى الشيخة والشيخ قليل جدا، فلو أن الكلام من الله تعالى، لما كان يمكن أن يأتى فى هذه العبارة إلا «إنْ» التى تدل على التقليل، لأن القرآن الكريم تتصاقب فيه الألفاظ والمعانى على أكمل وجه وأتمّه، ولهذا كان معجزا.

– حاصلُ القول، أن ما يُنسيه الله تعالى رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم وصحابته، لا يعودون يذكرون منه شيئا، لا لفظا ولا معنى.

– والشىء الثانى الذى يُخفِّف من الغرابة أن الإنسان قد يفقد ذاكرته، نتيجة مرض أو حادث، فلا يعود يذكر شيئا مما مضى، ولكنه يُدرك ما يَمْثُلُ فى الحاضر فَحَسْب. ومثله الإنسان المُصاب ببعض أنواع «الصَّرع».. فهو يأتى أعمالا وأقوالا، فى حال الصّرع، وعندما يُفيق لا يذكر من الأعمال والأقوال شيئا.

– وهكذا كان حال العرب، نسوا لُغتهم السَّابقة، واستيقظوا على الفُصحى، ولعلّ لُغتهم السَّابقة هى «العربيّة البائدة» التى نسيها العرب، وقد يُسأل»: ألم تترك آثار من العربيّة البائدة؟ فأجيب: بأن لا، أما تعلم أن الله تعالى هيَّأ كل ظروف الجزيرة العربيّة لتكون (مِهادا) للإسلام ينطلق منها إلى بقاع المعمورة آنذاك؟ فلم يبق شيء من هذه اللّغة البائدة، لكى لا تُزاحم العربيّة الباقية، هذه التى ألهمها الله تعالى العرب، قبل الإسلام بحوالى مائة وخمسين إلى مائتى سنة، ولعل تلك العربيّة البائدة هى لُغة عاد وثمود الذين قال الله تعالى فيهما: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ۝٨ ﴾ [الحاقة: ٥ – ٨].

فمعنى قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴾ و النَّفى المُطلق أن تكون بقيت لهم باقية، من لغة أو شعر أو علم، والنَّفى جاء عن طريق الاستفهام لكى يلفت الاستفهام المتلقى لفتا قويا لحقيقة هذا النفى ووكادته.

– بلى، هيّأ الله تعالى ظروف الجزيرة العربيّة، لتكون مِهادا للإسلام، ينطلق منها إلى بقاع المعمورة آنذاك، أفلم يجعل الله تعالى من العرب أقواما شجعانا أشداءَ (عن طريق التغازى بينهم) لكى يكونوا أهلا لحمل رسالة الإسلام إلى العالم؟ لاشك أن الإسلام ضاعف

ما فى نفوسهم من شجاعة ونجدة، ولكن الإسلام بُنِيَ على نفوس عامرة بالشجاعة والنَّجدة، لأن الله تعالى أرادت مشيئته، أن تتم الأمور من خلال واقع ملموس أصلا. أما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ق: ٣٨]، وهو تعالى قادر على أن يخلق السموات والأرض، وما بينهما فى لحظة واحدة، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس: ٨٢]، ذلك لكى يعلّمنا أن الأشياء لا تتم – ما عدا ما كان مُعجزا – إلا من خلال تفكير، وعمل ووقت.

– ولهذا، كان سهلا على قدرة الله تعالى أن تنقل رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم فى طَرْفَةِ عين من مكةَ المكرمةِ إلى المدينة المنورة، آنَ الهجرة، كما أسرى به فى ليلة واحدة، بل فى بعض ليلة، من مكة المكرمة إلى القدس الشريف، ثم عَرَجَ به إلى السموات العلا، ثم أعاده إلى مكة المكرمة فى بعض تلك الليلة.

– بلى، جعل العرب على ما وصفت، لكى يكونوا أهلا لحمل الإسلام، ولكن تخيّل – على سبيل الافتراض – لو أنزل الله تعالى الإسلام فى أمة الفُرس، تلك الأمة التى وصلت من التَّرف إلى درجة من التَّرهُّل، لا تمكنها من نشر الإسلام فى بِقاع الأرض، فلم يعد رجالها أشداء كالرجال العرب، وكانت من الانحدار الأخلاقى والقيمى، بحيث لم تعد نفوسها قادرة على الإشراق بالإسلام، وعلى أن تكون عامرة بأنواره السّاطعة، ودلالاته العظيمة، وروحانيّته التى تصل بين الأرض والسماء، بين الإنسان العامر الفؤاد، وبين ربّه تعالى خالق الكون كله والعباد، لمعاش ثم معاد.

–إذن، لن يثبت الإسلام فى الأرض، ولن يعبد الله تعالى فيها لو أُنزل على الفُرس، ومثل الفُرس.. الروم، حَذْوَ النَّعل بالنَّعل.

– ثم.. لماذا لم يحتل الفرس أو الروم مكةَ المكرمةَ، وهما أكبر قوَّتين فى العالم آنذاك؟ أوْ لماذا لم يحتلها الغساسنة أو المُناذرة؟ هناك.. أسباب طبيعية – لا مجال لذِكرها – هيأها الله تعالى لتصدّهم عنها.. يُضاف إلى ذلك أن الله تعالى أعمى قلوبهم عنها، لكى تظل بكيفية صالحة، لكى تكون «مهادا» للإسلام العظيم.

ثم ألم تعلم أن من تهيئة ظروف الجزيرة العربيّة – بمشيئة إلهية – أن جعل جيل الصَّحابة – رضوان الله تعالى عليهم. أفضل جيل، حتى تقوم القيامة، تطبيقا لفهمهم الصّافى للإسلام، وأفضل جيل إيمانا وأخلاقا، واجتهادا فى العِبادات، وجِهادا فى سبيل الله؟ كل ذلك، وهم من أمة أميّة تقل بين أفرادها معرفة القراءة والكتابة

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة: ٢]، أميّة حرف، وأميّة هداية.

– وأن جعل من تهيئة ظروف الجزيرة العربية–كبار الشعراء (كشعراء المُعلّقات) من البادية، أما الذين يعيشون فى مكة والمدينة (ما عدا حسّان ابن ثابت)[1]، الذى أعده ربه لكى يكون المنافح عن رسالة الإسلام) فقد كانوا شعراءَ صغارا، من الدرجة الثالثة، كابن الزِّبَعْرى الذى كان –لشقوته–يهجو الرسول صلى الله عليه وسلم الكامل، ذلك لأمرين: الأول: أن يكون قول مُشركى مكةَ المكرّمةِ تافها فاسدا، واضح البطلان، إذ يقولون – كما ورد فى كتاب الله تعالى –: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصافات: ٣٦].

– فلو كان شعر قريش شعرا عظيما كشعر البادية، لكان قولهم مما يُلْتَفَتُ إليه إلى حَدٍّ ما، لأن القرآن الكريم على كونِهِ كان معجزا، (فإنه يرتفع ثلاث درجات على شعر المعلقات)[2]، فإن ذلك يجعل من ادّعائهم بأن القرآن الكريم شعر.. شيئا يلتفت إليه، أما وشعرهم، على ما هو من تدنى المستوى، فإن كل – مُنصفٍ من أيامهم وحتى تقوم الساعة– يحكم بأنهم يمارون ويماحكون ويكابرون، ويقولون ما ليسوا على قناعة به، أو ما يشبه القناعة.

–وهذا مشهور ومعروف من قول الوليد ابن المغيرة، أحد زعماء قريش، الذى استمع للقرآن الكريم يتلوه رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما ورد فى سيرة ابن هشام، فلم يقبل – فى حديث مع قومه – أن يصفه بأنه شِعر، أو سجع كُهّان، أو سِحر، وإنما تواطأ معهم على أن يقولوا لوفود القبائل بأنه «سحر» يفرق بين المرء وزوجه، وبين الأب وابنه والأخ وأخيه[3].

– لأن ظاهر الأمر واحد، فالرجل الذى كان يُسْلِم كان يُفارق زوجته –إذا بَقِيَتْ

---

(١) أكتب «ابن» دائما بألف وإن وردت بين علمين، لأن عدم وجود الألف نقص فى الإملاء، إذ لا مُبرر مُقنع لعدم وروده حتى وإن كانت «ابن» بين علمين، وبهذا نُخفّف على المتعلّم فنجعل «لابن» قاعدة واحدة. وقد سلف القول بمثل هذا.

(٢) الشعر الجاهلى، هو أعظم نص أدبى بشرى، فى اللّغة العربيّة، ويرتفع فوقه درجة الحديث النبوى الشريف، فالحديث يعلو على الشعر الجاهلى بإحدى عشرة خاصية، كما أوردت ذلك فى كتابى «منابع الشعر، ومكانة الشاعر» (ص–٧٠–٧٥) ثم تكون فوق الحديث درجة فارغة. ثم يأتى بعد هذا الفراغ القرآن الكريم، لأن الحديث أعلى نص بيانى، وهذا.. معنى أن القرآن يرتفع على الشعر الجاهلى ثلاث درجات، درجة يحل فيها الحديث النبوى، ودرجة فراغا، والدرجة الثالثة هى درجة القرآن الكريم المعجز.

(٣) سيرة ابن هشام ١/٢٧٠.

على الكفر-، والزوجة التى كان تُسْلِم كانت تُفارق زوجها، والأب الذى كان يُسْلِم كان يتباعد عن أبنائه، والابن الذى كان يُسْلِم كان يتباعد عن أبيه غير المسلم، الظاهر واحد والجوهر مختلف، اختلاف النّقيض للنّقيض، ولكنهم كانوا يُخطّطون لإبعاد قبائل العرب التى تَفِدُ على مكة المكرمة فى المواسم، عن الإسلام بهذا الظاهر.

- بل - لماذا أرسل الله تعالى طيرا أبابيل - (جماعاتٍ)، فرمت أبرهة وجيشه بحجارة من سجيّل فقضت عليهم، وجعلتهم كعصف مأكول؟ أليس ذلك من المُمهِّدات للإسلام العظيم؟ ومن إدخال الشُّعور إلى رُوع العرب جميعا، وقريش خصوصا أن مكة المكرمة ذات شأن عظيم، وأنها أهل لأن تكونَ قِبلة العرب ومحجَّهم، ثم.. قِبلة العالم الإسلامى، بعد انتشار الإسلام العظيم؟

- وآخرُ ملاحظة بهذا السيّاق، أن اللّغة العربيّة لو كانت قد نمت نمّوا طبيعيا لما وصلت إلى ما وصلت إليه من الغِنى فى المُفردات والمُرونة فى التعابير (التى تتجاوب مع أدق الخلجات النفسية) بحيث أصبحت بهذا الغنى الإلهامى، قادرة على التعبير عن معانى القرآن العظيمة[1]، وليس هذا شأنَ اللُّغات التى تنمو نمّوا طبيعيا، لأنّ اللّغة - فى هذه الحالة - تأتى تجاوبا مع معانى البشر -التى هى أضيق من معانى القرآن الكريم، التى لا تحملها إلا لغة ألهمها الله تعالى للبشر.

أما ترى أن شِعر البادية فى الجاهلية كان أغنى الشّعر العربى منذ فجر الإسلام، وحتى يوم الناس هذا، بل وحتى تقوم الساعة، وإن كل الشّعراء فى كل عصور الإسلام، كانوا يتطلّعون دائما -لا إلى تقليد صوره، وتشابيهه واستعاراته التى كان عليها طابع البيئة البدوية (فلو كان هذا ما يتطلعون إليه لنزل بمرتبة الشاعر، لأن الشّاعر - والأديب عامة - لا يُبدع إلا إذا عبر عمّا يحسّ به من موجودات بيئتِهِ)، وإنما أعنى أنهم كانوا يتطلّعون إلى أسلوبه فى «كيفية» اختيار الألفاظ فى سياقها، واختيار الصور والتشابيه والاستعارات.. لكى تقع موقعها المُناسِب فى سِياقها، مع ضرورة تعبيرهم عن بيئاتهم ومعانيهم، وبغير هذا.. لا يعظّم الأدب.

- ومن المعلوم - بالضرورة - أن البيئات البدويّة الفقيرة بمفردات الحياة - عادةً - وبالمعانى هى فقيرة - عادة أيضا - بالمفردات اللغوية، وبالأدب الرّفيع، لأنّ الأدب

(١) سيكون الحديث عن غنى كلمات اللّغة العربيّة، عن طريق الاشتقاق الذى لا تضاهيها به لغة أخرى، وعن مُرونة التعبير التى تتفوق به على كلّ اللُّغات، سيكون موضوع مقالة لاحقة إن شاء الله تعالى.

الرَّفيـع لا يكون إلا إذا كانـت البيئة غنيّة باللّغة، غنيّة بمُفردات الحضارة – فكيف جاء الشّـعر الجاهلـى.. مُناقضا لهذه البديهية، لو كان ناتجا عن لغـة وُجِدت بالنّمو فى بيئةٍ فقـيرةٍ – فقيرةٍ باللّغة وفقيرة بالمعانى، إذ المعانى تتبع المُسـتوى الحضارى، فكلّما كانت البيئة ذات حضارة راقية كانت معانيها أغزر، وكلما كانت البيئة فقيرة بمُفردات الحضارة كانت معانيها أنزر؟.

جاء الشعر الجاهلى مُناقضا لهذه البديهيّة، لأن لغته هى لغة ألهمها الله تعالى العرب، لكى تَشـرُف بحمل القرآن الكريم، وألهم أهلها فى البادية، المعانى الشعرية الراقية (التى لا تصدر عادةً إلا عن حضارة، لا بداوة)، لكى يصل العرب فى مُسـتوى المعانى والتفكير إلى ما يجعلهم أهلا لفهم القرآن الكريم، وَحَمْلِ رسالة الإسلام العظيم.

–وإن ما يدعيه علماء الطبيعة من «الطفرة» تحدث أحيانا، وهم يلجأون إليها لتفسـير مالا يجدون له تفسيرا ليس دقيقا، فالطفرة لا وجود لها فى حركة الحياة ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٢].

– ولهذا.. فما كان يمكن (من باب الفَرَض التوضيحى) أن ينزل القرآن المُعجز بفصاحته وبلاغته، على أمة ليسـت ذاتَ فصاحة وبلاغة، وليست ذات أدب على مُستوى عالٍ من الفصاحـة والبلاغة، إذْ كيف تقفز عقولهم قفزا إلى فِهم القرآن، ما لم يتعوّدوا على فصاحة وبلاغة، هما خطوة ضرورية لصعود سُلّم الفصاحة والبلاغة إليه؟

– لا شك أن القرآن المُعجز يعلو الشعر الجاهلى بثلاث درجات فى الفصاحة والبلاغة، كما أسـلفنا القول، ولكن، لا شـك أن العرب لن يفهموه لو كانت المسافة بينه وبين لُغتهم عَشْرَ درجات مثلا.

– بـل كيـف «يقفز» وجدانهم قفـزا إلى «تذوّق» جمال القرآن، لو لم يكن لديهم شـعرٌ راقٍ، ولد فى البادية، ووصل عن طريق الأسـواق الأدبية إلى مكة المكرمة، شـعرٌ راقٍ هذّب وجدانهم، وصقل أذواقهم، بحيث أصبحت قادرة على تذوّق ما فى القرآن من جمالٍ عالٍ، يملأ النفس متعة وروحانية؟

– وبهذه المناسبة نتذكر إنكار طه حسين (ت ١٩٧٣م) فى كتابه «فى الشعر الجاهلى» صحة نسبة هذا الشعر العظيم إلى الجاهلية ! ! ومع أن الأدلة التى تنقض رأى طه حسين هذا.

كثيرةٌ، غير أن هذا السياق ليس مجال إيرادها، لذا فإننا نكتفى بذكر ما نَبَّهَ له السياق، وهو أن القرآن المُبين يستحيل أن ينزل على أمة ليست بذات بيان رفيع، ولن يوصف بيانها بأنه رفيع حقا، إلا إذا كانت ذات أدب رفيع (وأدبها الرفيع هنا هو الشعر)، لأنّ الطفرة فى الحياة غير معروفة، تبعا لما اقتضته سُنَّةُ الله تعالى فى الكون، كما نوَّهنا بذلك آنفا. فإنكار طه حسين – بسبب هذه العلة وحْدَها – يصبح إنكاره «تافها» قلَّدَ بِهِ أستاذه المستشرق – مَرْجليون – فكيف، إذا ضَمَّتْ لها أكثر من عَشْرِ علل أخرى؟.

–وإن كونَ الشِّعر هو الفنُّ العظيمُ الوحيدُ، الذى عرفه العرب فى الجاهلية يقودنا إلى تساؤل هو: لماذا لم يكن للعرب عراقة فى النَّثر كما كانت عراقتهم فى الشعر؟ بل لماذا لم يكن لديهم فَنٌّ روائى (وهو فنُّ القصة الطويلة) كما كان لديهم فن الشعر؟

–الجواب هو: لم يكن لديهم نثر فَنِّيٌّ كرقيّ الشّعر، لأن النثر مهما كان راقيا، لا يصل فى دسامته الفنية إلى مُستوى الشّعر الرّاقى، لأن الشّعر هو مزيج من الوجدان الموهوب، ومن العقل والخيال، ونصيب الوجدان فيه والخيال.. كبير، وأما النَّثر، فنصيب العقل فيه عادة يكون أكثر من نصيب الخيال والوجدان، مما أقلَّ تأثيرا فى النفس البشرية وإغناءا[1] للوجدان من الشّعر، ولهذا لم يكن لازما ليكون مِهادا لا غِنى عنه لفهم القرآن والتأثر بجماله، خِلافا للشّعر لما ذكرنا له من خصائص.

أمّا الرواية (القصة الطويلة)، فهى أقل لُزوما من النَّثر الفنى، على أنه غير لازم، لأن الرواية، عادة تعتمد على التّخطيط العقلى، لأحداثها وشخصيّاتها، ولبدايتها ووسطها ونهايتها، وما يهدف إليه الرّوائى منها، أما لُغتها، فغالبا ما تكون بسيطة غير غنيّة بالخيال، (على مُستوى التشابيه والاستعارات والكِنايات)، غير غنية بكثافة التعبير المؤثر فى الوجدان (العواطف والمشاعر والأحاسيس)، لأن مَن طبيعتها أن تكون كذلك.

(١) «إغناءا» أكتبها دائما بألف منونة بتنوين الفتح بعد الهمزة، لأنها لا تختلف فى صورتها ووزنها عن مثل «إنجازا» أو «إرجاعا» فالزاء والعين حرفان صحيحان، والهمزة حرف صحيح مثلهما، فلماذا نورد الألف المنونة بعد مثل الزاى والعين ولا نوردها بعد الهمزة؟ ليس لذلك علة معقولة، إذ هم يقولون أن أصل الهمزة ياء، لأنها من بنى يبنى، والياء من حروف العلة والألف التى تسبق الهمزة حرف علة، فإذا وضعنا بعدها ألفا توالت ثلاثة حروف علة والعربيّة تنفر من توالى الأمثال.

وهذه عِلّة لا منطق فيها، لأنه لو ورد حرف العلة نفسه وهو الياء، وليس ما انقلب إليه وهو الهمزة) لأثبتناه فقلنا: «بنايا» فكيف نثبته – لو اعتمدنا وروده. وهو جائز– ولا نثبت ما انقلب إليه، والأصل أقوى من البديل، خاصة أن هذا البديل ليس فى صوته أنه حرف علة؟ هذا إصلاح إملائى واجب.

– هنـا.. قد يقال: لكن ظروف الجزيرة العربيّـة الفقيرة بتنوع المناظر، الفقيرة بمظاهر الحضـارة، هى التى منعت من وجود الفن الروائى فيها، فأجيب: بأن ذلك صحيح، لأن الرِّوايـة تحتـاج – لوجودها – إلى بيئـة غنيّة بالمناظر، غنيّة بالحضـارة، لهذا لم توجد الرِّواية فى الغرب إلا فى القرن الثامنَ عَشَـرَ للميلاد، ولم توجد فى البلاد العربيّة إلا مع مطلع القرن العشرين.

– كل ذلـك صحيح، ولكن لـو كان الفن الرِّوائى مِهادا طبيعيا لنـزول القرآن الكريم، لهيّـأ الله تعالى الجزيرة العربيّة لتكون على مُسـتوىً من غِنـى المناظر ومن غِنى الحضارة يسـمحان، بـل يدفعان إلى وجود الفـنّ الرِّوائى ولكن، لأن هذا الفـن ليس ضروريا لنزول القرآن – كمهاد له – جعل الله تعالى الجزيرة العربيّة على ما كانت عليه، وجعلها مؤهلة بسـبب وجدان البدوى المُرهف، وخياله اللّمّاح، لقول الشـعر الرَّفيع الذى لا بد منه، لكى يكـون مِهادا للقرآن المعجز البيان، حتى يفهم العرب ويتذوقوا بيان القرآن الذى «يعلو ولا يُعلى عليه».

– وبعـد؛ فهذه أدلـة عامة على أن اللّغة العربيّة إلهام، وليسـت ناتجة عن اصطلاح ومُواضعـة. وهناك أدلّة خاصّة «نابعة» من خصائص هذه اللّغة، تؤكد ما وصلنا إليه تأكيدا لا يدع مجالا للشّك فى كونها إلهاما، ولكن هذا مُرْجَأ إلى مقالة لاحقة إن شاء الله تعالى.

– ويبقى سؤال هامّ سنُجيب عليه فى المقالة اللاحقة، وهو: ما رأى عُلماء اللّغة القُدامى فى أمر هذه اللّغة الشّريفة، أإلهام هى أم مواضعة واصطلاح؟ فأجيب على ذلك فى البحث الآتى.. إن شاء الله تعالى.

الموضوع الثانى

فى فقهِ العربيّة وبلاغتِها:
أقوالُ اللُّغويين العرب القُدامى فى العربيّة
فِرْيَةُ اللغُويين الغربيين بأنّ العربيّة.. ساميّةٌ[1]

يقول الدكتور صبحى الصالح: «فإذا استثنينا رأى هذا العبقرى – ابن جنى – الذى سبق إلى القول بوضع اللّغة.. واستثنينا أيضا آراء من تابع ابن جنى على هذا المذهب السّديد، وجدنا أئمة العربيّة الباقين، يكادون يطبقون على أن اللّغة (يقصد العربيّة) إلهام وتوقيف»[2].

ويقول الدكتور صبحى أيضا: «أما مباحث القوم حول أصل اللّغة: أإلهام هى أم اصطلاح؟ فكانت ذات وجهين.. كلاهُما يخرج عن المنهج الوصفيّ، ثم يَتَلَوَّنُ باللون المُناسب له، أما أحدهما فغيبى «ميتافيزيقى» لا يخلو من سذاجة، كقول ابن فارس: (إن لغة العرب توقيف، ودليل ذلك قوله جل ثناؤه: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ فكان ابن عباس يقول: علّمه الأسماء كلها، وهى هذه التى يتعارفها الناس، من دابة وأرض، وسهل وجبل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها..). وأما الآخر: فمنطقى فى تعابيره واستنتاجاته، لتأثّره بالعلاقة بين اللّفظ ومدلوله»[3].

أقول: قول صبحى الصالح عن الرّأى الأول، بأنه لا يخلو من سذاجة.. فهو رأيه الشخصى المتأثر بما قاله عُلماء اللّغة فى الغرب عن أصل اللُّغات، وليس هو أول من استسلم لآراء الغربيّين، وسيتبيّن خلال هذه المقالة والتى تتبعها، أن هذا الرّأى الأول هو

---

(١) كتبت سنة – ٢٠٠٥م.

(٢) دراسات فى فقه اللّغة، ٢١ دمشق، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٠م.

(٣) المرجع السابق، ١٧، ورأى ابن فارس وارد فى كتابه «الصاحبى فى فقه اللّغة وسُنن العربيّة فى كلامها» ٥/ القاهرة، المكتبة السلفية، ١٣٢٨هـ، ثم المزهر فى علوم اللّغة وأنواعها، ط٣، القاهرة، دار إحياء الكتب العربيّة، د.ت.

الرّأى الصواب، وأن اعتباره للرّأى الثانى بأنه منطقى فى تعابيره واستنتاجاته، هو تأثر برأى الغربيّين أيضا، وسيُبَيِّن خلال هذه المقالة والتى نتبعها المقالات، خطأ هذا الرّأى، فى تطبيقه على العربيّة الفُصحى خاصة.

ولكن، قبل أن ننتقل فى مقالة لاحقة إلى «خصائص العربيّة» المُتميّزة – بوضوح – عمّا فى اللّغة الإنجليزيّة من خصائص والمقارنة بينها وبين العربية، لأنها أسْيَرُ اللُّغات اليوم، قبل هذا، لابدَّ من أن نُسقِط «فِرْيَةً» قال بها علماء نقوش لغوية من الغربيين.

هذه الفِرْيَةُ هى أن اللُّغات التى وُجدت فى الجزيرة العربيّة، وفى العراق، وبلاد الشّام «سورية والأردن وفلسطين ولبنان» إنما هى لُغات «ساميّة»، وأنها انبثقت عن أصل لغوى واحد، هو اللّغة «الأم»، وهذه اللُّغات هى: العربيّة الجنوبيّة، والعربيّة الشماليّة «فى شبه الجزيرة العربيّة»، والأكّادية «فى العراق»، والكنعانيّة وفروعها «فى سورية الطبيعيّة»، والآرامية وفروعها «فى جنوبى سورية الطبيعية».

وقد سموها «اللُّغات الساميّة» نسبة إلى ما ورد فى التوراة «فى سفر التكوين – الإصحاح العاشر» من أن أبناء نوح عليه السلام هم: سام وحام ويافث، وأنه من سُلالتهم تكوّنت القبائل والشعوب[1].

وإنه لمعلوم أننا نحن – المسلمين – لا نأخذ بما ورد فى التوراة من الأخبار، إلا بما يماثل ما ورد فى القرآن الكريم أو الحديث النبوى الشريف، لقول رسولنا صلى الله عليه وسلم: «لا تُصَدِّقوا أهلَ الكتاب ولا تُكذّبوهُمْ، وقولوا آمنّا باللهِ وما أنْزَلَ»[2].

ورواية أن ساما وحاما ويافثَ، هم أبناء نوح عليه السلام، روى فيها حديث ضعَّف بعض رجاله البخارى ويحيى ابن معين رحمهما الله، ونصه: عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليهم وسلم: «ولد نوح سام وحام ويافث، فولد سام العرب وفارس والروم، والخير فيهم، وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة، ولا خير فيهم، وولد حام القبط والبربر والسودان» (رواه البزار، وفيه محمد ابن يزيد ابن سنان الرّهاوى، عن أبيه محمد.. وثّقه ابن حبّان. وقال: أبو حاتم صدوق، وضعَّفه يحيى ابن معين والبُخارى،

(١) انظر المرجع السابق (دراسات فى فقه اللغة) – ٣٦.

(٢) صحيح البخارى ٢/٩٥٣.

ثم يزيد ابن سنان، وثّقه أبو حاتم فقال: محلّه الصدق، وقال البخارى: مُقارب الحديث، ولكن ضعَّفه يحيى وجماعته)[1].

وما ورد فى كتب التاريخ، كتاريخ الطبرى والمسعودى، وابن خلدون غير مُوثّق، لأنه مأخوذ من مثل هذا الحديث السابق الضعيف، ومن التوراة كما سبق، وهذه الكتب التاريخية، محشّوة بالخرافات عن نشأة الأقوام السَّابقة، وعن تسلسل أنسابهم، فأقوالهم تخمينية أو أقرب إلى الرجم بالغيب، وإلا فأى كتاب وجدوه معتمد فى أنساب الأمم؟

ونتيجة هذا.. أن تسمية لغات هذه البلدان التى سبق ذكرها «باللُّغات السامية» إنما هى فِرْيَةٌ لا تقوم على أساس، وكل الذين اصطلحوا على هذه التسمية هم غربيّون[2] من علماء النقوش اللّغوية. (راجع تفصيل ذلك فى بحث سابق هو: فرضية الشعوب السامية واللغات السامية – فرضية خرافية).

فالأقرب إلى القبول – كما أرى – أنها فى معظمها شعوب عربية، مهدها هو الجزيرة العربيّة، ثم خرجت منهم موجات إلى البلدان القائمة شمالَ الجزيرة العربيّة، كالعراق وسورية الطبيعية، بحثًا عن الخِصب، وسعة العيش، أما النسب إلى آدم أو نوح عليهما السلام، فرجم بالغيب. وقد يكون بيننا وبينهما مليون سنة!

– أما زعمهم بأن لغات هذه الشعوب العربيّة، ترجع إلى لغة «أُمٍّ» انبثقت عنها هذه اللُّغات، فزعم ليس عليه ولا دليل واحد، كما سنُبيّن من خلال عرضنا لما ورد فى كتاب الدكتور محمود حجازى عن اللّغة:

١ – يقول الدكتور محمود فهمى حجازى: «فعندما يقال: بأن العربيّة والآراميّة لغتان ساميّتان، فالمقصود أن اللّغتين من أصل واحد، وأنهما تطورتا عن لغة واحدة هى اللّغة السامية الأولى، وقد افترض العلماء وجود هذه اللّغة فى عصور مغرفة فى القدم، لتفسير انتماء اللُّغات العربيّة والآرامية والحبشية.. الخ»[3].

---

(١) انظر مجمع الزوائد ١٩٣/١، وإن الواقع لا يصدق هذا الكلام، فهل صحيح أن الخير فى العرب والفُرس والروم؟ وإن التُّرك والصَّقالبة لا خير فيهم؟ ثم إن علم السُّلالات البشرية لا يجمع بين العرب والفُرس والرُّوم فى عرق واحد، بل الروم غربيون، والفرس شرقيّون، والعرب جنس بشرى قائم برأسه. (راجع: تفصيل ذلك فى بحث سابق هو: (فرضية الشعوب السامية – واللغات الساميّة –فرضية خرافية).

(٢) انظر محمود فهمى حجازى، علم اللّغة العربيّة، مدخل تاريخى مقارن فى ضوء التراث واللُّغات السامية، ١٣٩.

(٣) المرجع السابق، ١٢٠، وانظر فيليب حتّى–تاريخ العرب ٩/١ الذى يشك فى أن الجزيرة العربيّة أصل السّاميّين. ومع صحة شكّه – عندى – فهو ما يزال يظنّ أن ثمّةَ شعوبا سامية، وهذه ليست أكثر من خرافة.

– لاحظ قوله: «وقد افترض العلماء..» فالأمر مجرد افتراض لا دليل عليه –ألبتّةَ، أى هو رجم بالغيب، والأقرب إلى القبول –كما أرى–أن اللّغات التى قامت فى بيئة واحدة أو بيئات متقاربة، جرى بينها تقارض فى الألفاظ، وقواعد الصيغ، أى الصرف، وأحيانا فى حركات الإعراب، وفى الأصوات، لأن البيئة الواحدة لها دخل كبير فى تكوين جهاز النّطق عند الإنسان، بحيث يستطيع أهل بيئة، نطق أصوات لا يستطيع نُطقَها أهل بيئة مختلفة، أما ترى أن غير أهل البلاد العربيّة، لا يستطيعون نطق العين والحاء.. مثلا، كما ينطقها العربى؟

أما العلماء الذين ذكرهم حجازى.. فكلهم علماء غربيون والغربيون الذين أخرجوا الدين من «تفسير» الحياة على الأرض، لا يخطر ببالهم، ولا يستسيغون أن يفسّروا قيام لغة ما، على أساس الإلهام! فإذا أضفت إلى ذلك أن معظم الغربيين «مستشرقين وغير مستشرقين» يتبنّون موقفا معاديا للإسلام، ولهذا.. فهم يرفضون أن تكون لغة القرآن الكريم «إلهاما» لأنهم، لو قبلوا هذا الرأى لكانوا فى هذا، قد اعترفوا بأن القرآن الكريم كتاب منزل من عند الله تعالى، وربما أنه آخر كتاب، «هكذا يقودهم المنطق» فهو أحدث كتاب، وإذن فلا مَناصَ من الإيمان به من كل من لا يكابر، ولا يجادل بالباطل ليدحض به الحق، وهذا ما لا يريدون، بل هذا ما يفرّون منه فِرارا. وحكاية (العلماء) هذه يتكئ عليها المؤلفون لإقناع الناس بآرائهم. والعلماء هؤلاء ليسوا أكثر من مُنجمين، فى مثل هذا الموضوع.

٢ – ويقول حجازى: «فإن قارن أحد اللّغة الأردية باللّغة الفرنسية، لم يستطع أن يتبين أوجه شبه يذكر، ولكن أوجّه الشبه تتضح بمقارنة اللُّغات الفرنسية والإيطالية والأسبانية والرومانية، «لأنها» ترجع إلى أصلٍ واحد هو اللاتينية»[1].

أقول: لماذا تتضح أوجه الشّبه بين هذه اللُّغات؟ الجواب واضح؛ لأنها ترجع إلى أصل واحد معروف، هو اللاتينية، واللاتينية لغة معروفة بكل تفاصيلها: ألفاظا وأصواتا وصرفا ونحوا، وهناك من يدرسها الآن، ويتخصص فى علومها.

–أيُقاس – لأن – عليها ما لا يستطيع هؤلاء العلماء الغربيون أن يجدو له أثرا، ولو كان جملة واحدة؟ اللاتينية، حقيقة ماثلة، أما ما زعموه من لغة «أم» للغات البلدان العربيّة.. فرجم بالغيب، وافترض قاد إليه ما ذكرناه فى الرقم السابق، من موقف الغربيين من الدين، والدين الإسلامى خاصة. وبَانَ خطؤهُ فى مبحث خرافة الشعوب السامية، واللغات السامية الذى أشرنا إليه أكثر من مَرّة.

(١) المرجع السابق، ١٢١.

٣ – ويقـول: «أصـوات الحلق.. وأصـوات الإطباق.. وهى أصوات تشـترك فى سِمة واحدة «يعنى أصـوات الإطباق» الواقع أن هاتين المجموعتين موجودتان بدرجات مُتفاوتة فى اللُغات السامية المختلفة، فليست كل لغة سامية تضم كل الأصوات الحلقية والمطبقة، الموجودة فى العربيّة»[1].

– أقـول: إن كـون اللُغات التى كانت قائمة فى البـلاد العربيّة، لا تضم أيٌّ منها كل أصـوات الحلق والإطباق الموجودة فى العربيّة يؤدى إلى نتيجتين: الأولى: أن اللُغات ذات البيئة الواحدة، يسهل تفهم اشتراكها فى بعض الحروف الصعبة فى النطق كحروف الحلق وحروف الإطباق كما أشرنا فى الرقم الأول.

والثانيـة: أن تفوق العربيّـة على لغات المنطقة الأخرى بكثرة حروف الحلق والإطباق، يشير إلى «فرادتها» بين هذه اللُغات، وتفوّقها عليها.

وإن اشـتراكها مع لغات المنطقة ببعض حروف الحلق والإطباق وتفردها ببعض حروف الحلق والإطباق لا يضعف من الرأى القائل بأنها لغة إلهامية، لأن الله تعالى أراد للأشـياء جميعا أن تحدث فى إطار سـياق واقعى، فليس فى الحياة طفرات، فى أى شـيء، وما يفسّره العلماء من الأمور المادية بأنه طفرة، إنما هو تعبير عن عجزهم عن أن يجدوا تفسيرا ماديا مقبولا، فيلجأون إلى هذا التفسير الذى هو فى حقيقته «لا تفسير». بل –إنّ كلّ لغات الدنيا تشترك فى نسبة كبيرة من الأصوات – خلا أصوات الحلق.

– وأقول: أما كان الله تعالى قادرا على أن يجعل رسولنا محمدا صلى الله عليه وسلم، ينتقـل عند الهجرة من مكة المكرمـة إلى المدينة المنورة فى بعض ليلة، كما كان فى حادثة الإسراء والمعراج؟ بلى كان قادرا! ولكنه لم يشأ، جلّت قدرته، ذلك لأن مشيئة الله قضت بأن تتم الأشـياء – ما عدا المعجزات – من خلال تفكير وتدبير وتخطيط وزمن وعمل. أما كان الله تعالى قادرا على أن يهلك كفّار قريش فى لحظة عندما ترأوا لجيش الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، فى معركة بدر؟ بلى، ولكن لم يشأ للسبب السابق نفسه، وهكذا..

– إذن.. بديهـى أن الله تعـالى كان قـادرا علـى أن يجعل اللّغـة العربيّة تخالف فى خصائصها كل خصائص لغات المنطقة، ولكنه لم يشـأ للسـبب السـابق، بحيث لا تأتى العربيّـة «طفرة» بل تكون مندمجة فى السِّـياق العام للغـات المنطقة، بل للغات العالم فى كثـير من أصوات الحـروف، وفى بعض الألفاظ وبعض الخصائـص الصرفية، وفى بعض

(١) المرجع السابق، ١٤٠.

الخصائص النحوية، وخصائص التركيب، ثم تعلو عليها، بعد هذا فيكون لها تفوقها فى كثرة المفردات، وفى ثراء الاشتقاق الذى تتولد منه مئات الآلاف من الألفاظ، قبل أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، وتفوّقها فى بناء الجملة التى يساعد فى مرونتها على هذا النحو المحكم الإعراب، والإعرابُ المضطرد ميزة من مزايا العربية.

– وبهذا الاندراج لا تكون طفرة، وبهذا العُلوّ تكون ذات بيان رفيع، وتكون قادرة على حمل القرآن الكريم إلى العرب أولا، ثم إلى العالم أجمع، ثانيا–وشيء بديهى فى العقول أن المعنى الكونى الذى يصلح لكل زمان ومكان، لا تحمله إلا لغة منفردة فى خصائصها، تعلو على لغات البشر، ولن تعلو على لغات البشر إلا إذا كانت من رَبِّ البشر، لأن اللُّغات البشرية تنتقل من حالة إلى حالة بلا استثناء، خلال بضعة قرون، بحيث لا يفهم اللاحق السابق إلا عن طريق الترجمة، واللّغة الإنجليزية من أوضح الأمثلة على ذلك، فشاعر الإنجليز العظيم «شكسبير» لا يفهمه الإنجليز اليوم إلا بالترجمة، وليس بينهم وبينه إلا أربعة قرون. أما العربيّة فشعرها فى الجاهلية فنفهم معظمة اليوم، مع الاستعانة أحيانا بالمعجم، انظر إلى معلقة زهير ابن أبى سُلمى التى ما يزال كثير من المثقّفين يرددون حِكَمَها، وانظر إلى عمر ابن أبى ربيعة الذى عاش فى القرن الهجرى الأول، وإلى سهولة شعره حتى لتخلط بين شعره وبين الشعر الغزلى لنزار قبانى الذى مضى قبل بضع سنوات.

بل إن المسلم الذى لم يتجاوز فى تعليمه الصف السادس، ولكنه قد بلغ الرشد يستطيع أن يقرأ القرآن بيسر وسهولة. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [القمر: ٢٢] وبيننا وبين نزول القرآن أربعةَ عَشَرَ قرنا، ونيّفا.

– وهذا شيء لم تَحْظَ به أى لغة على وجه الأرض – حاشا العربيّةَ – هذه اللّغة الشريفة التى شرّفها الله تعالى مرتين، إذْ كانت إلهاما من عنده تعالى ألهمها العرب، وإذْ أنزل بها القرآن الكريم، فشرّفها بنزوله لها.

ومثل لغات البشر، فكر البشر، فكل فيلسوف مثلا، يموت من فكرة شيء ويبقى شيء، لأن الفيلسوف يَحْكُمُ تفكيره الزمان والمكان، ففلسفته نابعة منهما، والزمان والمكان متغيّران، ولذا تتغير جوانب كثيرة من فلسفته، ولا يبقى إلا ما هو مشترك بين الفِطَرِ البشرية، وهو هذا الذى يتجاوز الزمان والمكان.

ومن هنا فتصوّر أفلاطون اليونانى لجمهوريته خضع لزمانه ومكانه، وفى إطارهما كان مجتمعه مقسّما إلى أربعة طبقات: الحكّام والأشراف والفلاسفة طبقة، والجند طبقة، والفلاحون طبقة، والعبيد هم الطبقة الرابعة. وهكذا جاء تصوره لجمهوريته ولكن هذا التصور لم يطبق فى الواقع لأن الحياة البشرية تجاوزته، ولما فى بعض جوانبه من الخطل كالإباحية الجنسية. وَجَمْعُ الصغار فى محاضن، فلا يعرف طفل أمّه، وإنما ترضعه أيُّ امرأة وهل ينشأ مثل هؤلاء إلا قساة عدوانيين؟

والمنطق الصورى الذى بناه أرسطو «تلميذ أفلاطون»، ومخالفه فى اتجاه الفكر، فأفلاطون مثالى وأرسطو واقعى يؤمن بالمحسوس»، هذا المنطق قد تجاوزه الزمن لأن المنطق الأجدر أن يؤخذ به هو المنطق النابع من الأشياء ذاتها، فى ضوء العقل هذا فى منظور بعض الفلاسفة الغرب، أمّا فى منظور الإسلام فهو المنطق نفسه، ولكنْ، مع إضافة هامة وهى جريان كل ذلك فى ضوء نُصوص الإسلام، وإذا لم توجد النصوص ففى ضوء مبادئ الإسلام. لأن القرآن هو (العقل الكلّى)، وعقل الإنسان هو (العقل الجزئى) – وكلاهما من الله العليم الحليم، فهما لا يتناقضان، وإن كان العقل الكامل لا خطأ فيه. أما العقل الجزئى فقد يخطئ – لما أراده الله الحكيم من عدم الكمال فى طبيعة الإنسان[1].

ومثل أفلاطون وأرسطو كل الفلاسفة المحدثين. فماذا تبقّى من وجودية «سارتر» الفرنسي؟ هذه الوجودية التى ترى أن الإنسان هو الذى يصنع قيمته ومستقبله، غير مقيد نفسه بأى قيمة أو عُرف سابق؟ أقول: والفرد ليس وحده ليضع حياته وحده إذن.. كل هذا هو فكر غير ثابت بلغة غير ثابتة.

–ولكن حقائق الدين ثابتة لا تتغير، فلا بد من لغة ثابتة لا تتغير ولن تكون كذلك إلا إذا كانت بإلهام من الله تعالى، لها خصائصها الباقية على الزمن: قد يقال: ولكن العربيّة طرأت فيها ألفاظ جديدة، غالبا عن طريق قانون الاشتقاق، ومعانٍ جديدةٌ لألفاظ قديمة، واستعملت «المُعَرَّب» وبعضه ورد فى القرآن الكريم، فكيف تعدّها ثابتة؟

– والجواب: أنها ثابتة فى قوانينها العامة، فقوانين فى توليد الكلمات الجديدة «الاشتقاق» ثابتة، وقوانين تطور معانى الألفاظ ثابتة، إذ لا بد من علاقة معقولة بين المعنى القديم والمعنى الجديد للكلمة. وقوانين التعريب ثابتة، وما هو أهم من هذا كله، فهو ثابت،

(١) انظر: تفصيل ذلك فى كتابى (النداء الحق) – ١/٢٣–٤٦ فقد فصّلت ذلك، تحت عنوان (تأصيل).

وهو «النحو» الذى يضبط قواعد التركيب، من ناحية، ويضبط حركات الإعراب من ناحية أخرى، ثم يكون من ذلك ما لا يحصى من التعابير.

– وبهذا فلا يفقدها شخصيتها ما يَجِدُّ من ألفاظ ومعانٍ للألفاظ، ومن مُعَرَّب، لأن الأصول ثابتة يسهل رَدُّ الفروع إليها، ولأن النحو يحفظ لها كيانها العامّ من التغير والانتقال إلى كيان آخر.

هذا معنى «ثباتها» وهذا (بما يقوم عليه من قوانين) لا تجده بتمامه، فى لغة أخرى، ولهذا تتحول اللُّغات الأخرى من كيان إلى كيان آخر، خلال بضعة قرون وسنقارن بين العربيّة والإنجليزية فى مقالات لاحقة، وإن قولى بثبات العربيّة لثبات معانى القرآن الكونية – هو رأى لم يَرِدْ فى كتاب سابق.

٤ – ويقول حجازى: «وهناك لغة سامية فقدت أكثر أصوات الحلق، وهى اللّغة الأكادية فى العراق القديم، ولذا لم يبق فى اللّغة الأكادية من أصوات الحلق إلا صوتان حلقيان هما: الهمزة والخاء، فقد حدثت فى هذه اللُّغات تغيرات قللت عدد أصوات الحلق. أما اللّغة العربيّة فقد احتفظت بالمجموعة كاملة، ولذا تُعدُّ العربيّة من هذا الجانب امتدادا مباشرا للغة السامية الأم»[1].

– أقول: لاحظ أن العربيّة الفُصحى، لم تقُمْ إلا قبل مجيء الإسلام بقرنين فقط، أى: فى منتصف القرن الرابع الميلادى، فكيف تحتفظ بأصوات الحلق التى وجدت فى اللّغة السامية الأم «المزعومة» ذات القدم السَّحيق؟[2]

إن الدكتور حجازى لا يَبْسط هنا رأيه الشخصى – شأنُهُ (للأسف) شأنُ كل علماء العربيّة الذين تقبّلوا آراء المستشرقين بلا نقاش، بل – للأسف مرّة أخرى – اكتفوا بأخذ آرائهم، ولم «يتفكّروا» فيها، وإنما يَبْسط وجهة نظر علماء النقُّوش اللغوية الغربيين، وهؤلاء عرفت رأينا فيهم.

– إن بين قيام الأكادية والعربيّة ستةً وثلاثين قرنا، أعنى أن الأكادية عرفت فى شَمال العراق قبل الميلاد باثنين وثلاثين قرنا[3]، أما العربيّة فلم تعرف إلا فى منتصف القرن الرابع الميلادى، وكانت الأكادية مكتوبة، فلو صحّ زعم الغربيين من أن هناك لغة سامية أمّا، لكان المعقول أن اللغة التى تحتفظ بأصواتها هى الأكادية، وليس العربيّة.

---

(١) علم اللغة العربية – حجازى – ١٤١.

(٢) راجع تفصيل ذلك فى (التمهيد).

(٣) انظر المرجع السابق، ١٥٧.

– أولا : لقِـدم الأكاديــة : وثانيا، لأن الأكادية لغة مكتوبــة، واللّغة المكتوبة أقدر على حفظ الصوت من التغير من اللّغة غير المكتوبة، لأن الأصوات فى اللّغة غير المكتوبة عرضة للتغير الســريع، فليس لها رمز يضبطها. أمّا الحرف... فهو عاملٌ مُهمّ فى حفظ الصوت دون تغيير، أو –دون تغيير يُذكر – على الأقلّ.

– أمّا الرأى القائل بأن اللّغة العربيّة الفُصحى قديمة، فرأى ليس عليه ولا دليل واحد، لأنهــا لو كانت قديمة، فــى مكة المكرمة والمدينة المنورة لكانت مكتوبة، منذ زمن الأكادية على الأقل، أى قبل ستة وثلاثين قرنا أو حولها، قبل ظهورها فى الشعر الجاهلى، وهذا ما لم يكن. ويستحيل أن تعيش لغة ستةً وثلاثين قرنا، ولا تخترع أو تستعار – لها – حروف تكتب بها.

هذا دليل أول على أنها ليست قديمة، أما الدليل الآخر، فلو كانت قديمة، لَحُفِظَ شيء مما قيل فيها من شـعر، على توالى العصور، ولو مقدارَ ألفِ بيت على الأقل من كل قرن، ولو على شــكل مقطعات صغيرة يســهل حفظها. ما بالُ العرب حفظوا المعلقات، وحفظوا عشــرات الآلاف من أبيات الجاهلين الثانية التى ســبقت الإســلام، ولم يحفظوا شيئا من الجاهليــة الأولى، لــو كانت الفُصحى هى لغة هذه الجاهلية الأولى؟!! هذا القَطْعُ المفاجيء مستحيل.. فى الطبائع البشرية.

– وبعد، فلقد أوردنا فى هذه المقالة أربعة أدلّة تُثبت أن الزعم بأن اللُّغات القديمة فى هذه المنطقة هى لغات «ســامية» لَهُوَ مَحْضُ فِرْيَةٍ فإذا أضفنا إليها كل الأدلة التى «فنَّدنا» بها خُرافة فرضية الشــعوب السامية، واللُّغات السامية، فى مبحث (التمهيد) – تبين لنا أنها مجرد لغات متقاربة فى خصائصها، لأنها لغات بلدان متجاورة يسهل أن تطبع هذه البلدان الإنســان بطبائع وطوابع متقاربة تجعل جهاز النطق لدى أفراده متشــابها – وأن الزعم بأن العربيّة الفُصحى قديمة، وأنها لغة ســامية قريبة من اللّغة الأم السامية المزعومة بخصائصها، فهو محضُ فِريةٍ أيضا، ليس عليها، ولا دليل واحد.

ولدينا أدلة أخرى سنوردها فى مقالةٍ لاحقة إن شاء الله تعالى، لكى يَبينَ الحقُّ وتنقمعَ تُرَّهات الباطل. وبالله العليم الحكيم نستعين.

الموضوع الثالث

ليس هناك من لغةٍ سامية أم للغات المنطقة[1]
العربيّة الفُصحى لغة إلهاميّة، وقامت قبل الإسلام بقرنين فقط

فى المقالة السابقة أقمنا أربعة أدلة تُبَيِّنُ أنه ليس من لغة سامية «أم» للغات القديمة فى المنطقة العربيّة، لأن الزعم بأن نوحا – عليه السلام – كان له ثلاثة أبناء هم: سام وحام ويافث – ومن سام جاء مصطلح السامية) – ليس عليه ولا دليل واحد يُوثق به.

ومثلــه الزعم بأن العربيّــة الفُصحى، لغة ضاربة فى أعماق التاريخ القديم، وأنها أقرب اللُّغات الســامية إلى هذه اللّغة الأم الســامية. فالعربيّة، فى الحق لا يزيد عمرها على مئتى سنة قبل الإسلام، وفى هذه المقالة سنُضيف الأدلة الثمانية الآتية:

ونحــن نأخذ هذه الأقوال التى نعلــق عليها من كتاب الدكتور محمود فهمى حجازى، الــذى جاء ما فيــه من معلومات مما زعمه علمــاء النُّقوش اللغويــة الغربيون، فى موضوع ما سمَّوْهُ (اللُّغاتُ الساميةُ):

١ – يقول الدكتور حجازى: (.. تظهر عروبة «النَّبَطِ» من اســتخدامهم اللغوى، فهناك ألفاظ تأتى بمعانيها العربيّة فى نقوشــهم مثــل: «آل» للدلالة على الانتماء العربى القبلى) – ولــد (بمعنى أبنــاء) – آخر (بمعنى ذريــة) – ضريح (بمعنى حجــرة) إحدى (بمعنى واحــدة) – غير (بمعناهــا العربى الحالى)، والأفعال: هلك – صنــع – لعن (بمعناها فى العربيّة)[2].

– أقــول: ظاهــر هذا القــول، أنه ينصر زَعْمَ علمــاء النقوش الغربيين، بــأن العربيّة الفُصحــى «أقدم مما أنــا قلته آنفا، لأن لغة الأنباط لم تتوقف عــن الحياة إلا مع أواخر القرن الثالث الميلادى».

– بَيْــدَ أن الحقيقــة غير ذلك، لأن وجود ألفاظ من العربيّة الفُصحى فى لغة الأنباط – بمعناهــا فــى الفُصحى أو بمعــانٍ مخالفة – لا يعنى بحــال من الأحوال، بأنها مُشــتقّة

(١) كتبت سنة – ٢٠٠٥م.

(٢) حجــازى: علــم اللّغة العربيّة – مدخل تاريخى مقارن، فى ضوء التراث واللُّغات الســامية – ١٨٢. وانظر صفحة ٢٠٩ – ٢١٢.

مـن الفُصحـى، لأنها – أولا: (لهجـة آرمية كتبَ بها النَّبط نقوشـهم حتى أواخر القرن الثالث الميلادى)[1].

وثانيـا – لأن أمامى كتابا «عنوانه: (اللّغة العربيّـة – أصل اللُّغات كلها)[2] – يعتبر (كما يظهر من عنوانه) أن اللّغة الإنجليزية مُشتقة من اللّغة العربيّة، وقد أشرت إلى مضمونه سابقا. ومع أنى لا أرى ذلك (وأن كل ما أقوله هو رَدٌّ عليه). غيرَ أن فيما أورده من مفردات «متشابهة» بين العربيّة والإنجليزية ما «يؤكد» أن وجود عشرات الكلمات بل وجود مئاتها متشـابه بـين لغتين لا يعنى بحال من الأحوال، أنهما لغتـان ترجعان إلى أصل واحد، أو أن إحداهما أصل الأخرى، فكما تتشـابه كثير من أفكار الاقتصاد الاشـتراكى (الشيوعى) مع أفكار كثير من الاقتصاد الرأسمالى، مع أفكار كثيرة من الاقتصاد الزكويّ (الإسـلامى) كذلـك تتشـابه أفكارٌ فـى كل اللُّغات، وهذا التشـابُهُ الاقتصادى دفع عالما إسـلاميا هو المرحوم مصطفى السِّباعى ليؤلف كتابا عنوانه: (اشتراكيةُ الإسلام). وهذا غير دقيق – لأن الإسـلام يقوم نظامه الاقتصادى – أصلا – على طلبِ رضى الله تعالى، عن طريق السـعى إلى مصلحـة الجماعة أولا، ومصلحة الفـرد ثانيا، بل على التوفيق بين مصلحة الجماعة، أولا ومصلحة الفرد ثانيا، بل على التوفيق بين مصلحة الجماعة ومصلحة الفرد، فى إطار نصوص الإسـلام ومبادئه العامة، فالفعل الاقتصادى الإسـلامى هو «عبادة» لله تعالى، ومن هنـا.. فهو يقوم فى إطار موازين الحق والعدل. أما نظام الاقتصاد الاشـتراكى.. فهو نظام اجتماعـى يقـلّ فيه الاهتمام بالفـرد تجاه الجماعة، وليس له علاقة بـأى منظور غيبى، والنظام الاقتصادى الرأسمالى يُعلى من شـأن الحريـة الفردية فى الفعل الاقتصادى، حتى أضحت الثروة مجتمعة فى أيدى بِضعة بالمئة من الأفراد والشـركات، وليس له علاقة بأى منظور غيبيّ، كالنظام الشيوعى. وآخر ما يُفكر فيه والرأسمالى هو الحق والعدل. وإذ ليس مثل هذا التشابه فى مفردات فى اللُّغات، وفى الأنظمة الاقتصادية المختلفة، وفى كثير من العادات والتقاليد والعواطف والمشـاعر والأحاسيس، والمعانى الإنسانية – إلا نتيجةً للذى فـى «الطبيعة» البشـرية من تَوَحُّدٍ يكيِّفهُ، ويُنَوِّعُهُ.. تنـوُّعُ الظروف والبيئات، من غير أن تخرجه عن أصله الظروف والبيئات.

---

(١) المرجع السابق– ١٨٢.

(٢) هـذا الكتـاب مـن تأليف عبـد الرحمن أحمد البوريني – عمان / دار الحسـن للنشـر والتوزيع – ١٩٩٨م.

– هذا الكتاب السابق (اللّغةُ العربيّةُ – أصلُ اللُّغات كلها) أورد من الألفاظ المتشابهة بين العربيّة والإنجليزية (١٥٠٠) ألفا وخمسمئة كلمة تقريبا (مع شيء من التكلّف فى رَدّ بعضها من الإنجليزية إلى العربيّة)، ولم يتناول من القاموس الإنجليزى إلا الكلمات التى تبدأ بالحروف التسعة الآتية: (A – B – C – D – E – L – M – P – R).

ومن هذه الكلمات: (فَرَسَ: Press، قَرَشَ، أى: قطع: Crush، يتأقلم: Acclimate، نكتة: Anedote، النعمة: Animate، يبرد: Abrade، يلى: Below... الخ)[1]. وطبعا.. هذا تشابُهُ أصوات – يقع مثله كثيرا، أو تقارض فى الألفاظ، وهذا يقع كثيرا أيضا.

–أبعد هذا.. يجوز لأحد أن يقول: إنّ تشابُهَ لغة مع لغة أخرى ببعض المفردات (واللغتان من بيئة واحدة) – يعنى أن إحداهما مُشتقّة من الأخرى، أو – أنهما ترجعان إلى أصل لُغوى واحد قد انبثقا عنه؟!

–إن التشابه حتميّ بين لغتين فى منطقة جغرافية واحدة، وهذا التشابه يجب ألا يحملنا على افتراض أنهما من أصل واحد خاصّةً عندما لا يكون هذا الأصل معروفا، وليس له آثار باقية، وهذا.. خلاف اللّغة اللآتينية واللُّغات الأوروبية المنبثقة منها، لأن اللّغة اللاتينية لا تزال موجودة، وماثلة فى عشرات الكتب، وإن لم تَعُدْ لغةً حيّة يستعملها شعب من الشعوب.

أمّا افتراض وجود لغة سامية أُمٍّ ليس لها ولا نقش واحد – فهو افتراض لا يزيد على أنه رجم بالغيب، أو نوع من الخيال الواهم، من أناس لا يؤمنون إلا بالتفسير المادى للأشياء، ولا يؤمنون بتفسير «غيبيّ» أى – باعتبار لغة – ما – وهى لغةُ القرآن «إلهاما».

٢ – ويقول حجازى: (وأول لغة فى الفرع الجنوبى لها دور فى التاريخ، هى اللّغة العربيّة الجنوبية القديمة، التى عُرفت قديما باسم الحِمْيَريّة: وعندما قَلّتْ النقوش الجنوبية فى أواخر القرن السادس الميلادى، كانت العربيّة الشمالية قد بدأت تنتشر فى المنطقة اللغوية الجنوبية)[2].

أقول: ما قلناهُ فى الرقم السابق (الأول) وهو أن الفُصحى لغة، والنبطية لغة أخرى لما أسلفناه من تحليل، هو نفسه يقال عن الفُصحى وعن عربيّة جنوب الجزيرة العربيّة.

---

(١) المرجع نفسه، ٧٩، ٨٠.

(٢) حجازى: علم اللّغة العربيّة – ١٨٤– وانظر صفحة ٢٠٩، ٢٢٢، ٢٢٣.

أمـا قـال أبو عمرو ابن العلاء، في القرن الهجرى الثانى: (ما لسـانُ حِمْير وأقاصى اليمن بلسـاننا، ولا عربيّتُهم بعروبيّتنا)[1] وهذا يؤكد ما نحن نراه. فتشابُهُ أصوات، ولو كثرت، وتشـابه أصوات بعض الكلمات، بل وتشـابه معانيها – لا يعنى بأن إحداهما مشتقة من الأخرى أو أنهما ترجعان إلى أصل واحد.

٣ – ويقول حجازى: «ظلّت نصوص الشـعر الجاهلى عدة قرون، أقدم نصوص عربية معروفـة عند الباحثين (يقصد بنصوص عربية معروفـة.. نصوصا بالفُصحى) ولكن البحث الحديث، فى القرن التاسـعَ عَشَرَ. أوضح، بعد اكتشـاف اللّغة الأكّادية، وبحث اللّغات السـامية بالمنهج المقـارن أن خصائص البنية اللغوية للعربية (يقصـد الفُصحى) ولهجاتها القديمة، يمكن أن تُؤرخ فى ضوء علم اللُّغات السامية المقارن.

وبذلـك.. أمكن عن طريق الدراسـة المقارنـة، تأريخ كثير من الظواهـر العربيّة (يقصد الفُصحى) فى مرحلة أسـبقَ من الشعر الجاهلى بأكثر من ألفيْ عام. فالظواهر المشتركة فى العربيّة والأكادية لا يمكن أن تكون إلا موروثة عن اللّغة السامية الأولى التى خرجت عنها كل اللُّغات السامية»[2].

–أقول: أولا – بيّنّا فى مقالة سـابقة، أن الزّعم بوجود لغة سـامية أُولى انحدرت عنها سائر اللُّغات المُسمّاة بالسامية – ما هو إلا خرافة، إذ ليس على هذا الزعم ولا دليل واحد.

وثانيا – إن الظواهر المشـتركة بين العربيّة الفُصحى والأكادية – ليسـت أكثر من تلاقٍ يأتى عن طريق السِّـمات المشـتركة للبيئات المتقاربة وذات المناخ الجغرافى المتقارب، وعن طريق السِّـمات المشـتركة بين فِطَر الناس جميعا، بَلهَ فطرَ الناس فى بلدان متجاورة. وقد فصّلنا هذه الأسـباب فى الرقم الأول. فليسـت الظواهر المشـتركة بين الفُصحى والأكادية مختلفة فى حقيقتها، عن الظواهر المشتركة بين الفُصحى والنبطيّة.

ثم.. لو كانت الفُصحى لها نُقوش (= نصوص) قبل ألفيْ عام من ولادة الشعر الجاهلى «لحفظت» الأجيال المتعاقبة شـيئا منها، أيعقل أن تنسـى الأجيال كلّ نصوص الفُصحى، قبل الشعر الجاهلى، ثم.. طَفْرَةً تعظم حافظتهم فيحفظون عشرات الآلاف من الأبيات من الشعر الجاهلى؟ فأين التعليل لهذا القَطْعِ الحاسم؟

---

(١) محمد بن سلاّم الجمحى، طبقات فُحول الشعراء، المقدمة، ص١١.

(٢) المرجع السـابق– ١٩٣/ انظر فيليب حتى: تاريخ العرب – ٩/١ – الذى يُقرر أن الأبحاث العلمية لم تَعُدْ بفائدة حول أبناء نوح.

– ذلك يخالف المعقول، ويخالف العلم الضرورى، إذ لم نجد أمة نَسِيَتْ كل ماضيها الأدبى، دَفْعَةً واحدة، لو كان لها ماضٍ أدبى، ثم تفتقت عبقريتها لتحفظ أدب مرحلة متأخرة، أو تحفظ أكثرهُ، لو كان لها ماضٍ أدبيّ حقا، متصلٍ بما جاء فى الفُصحى من شعر رفيع. ثم.. هل يعقل أن ينبثق شعر رفيع فى الفُصحى فى العصر الجاهلى، وليس له مقدمات، تدرّجت فى النضج حتى وصلت إلى النضج الكامل فيه، لو كانت الفُصحى نمت نموا طبيعياً، كما تنمو اللُّغات؟

– إن الفُصحى إلهام وتوقيف، وليست تواضعا واصطلاحا.

– الفصحى... إلهام– لكى تكون قادرةً على حملِ معانى الكون – معانى القرآن الكريم[1]. ولو لم تكن إلهاما، لتغيّرت كلَّ بضعة قرون – كما تتغير سائر اللُّغات. وهى لا يعقل أن تتغير، وإلا اضطر المسلمون أن يترجموا القرآن الكريم، ولو ترجم القرآن إلى غير لغته «الأصلية».. لما عاد «قرآنا» – حاشاه – بل أضحى كلام بشر، يدخله الخطأ فى اللفظ والمعنى، الجلال والهيبة. والروحانية، والإعجاز فى تَعَدُّد المعانى – هذه الأربعة القائمة فيه، قبل الترجمة. وهذا.. لم يُقَدِّرْهُ الله تعالى، بل قَدَّرَ تعالى نزوله بلغة إلهامية «خالدة» ليكون خالدا – مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحِجْر: ٩].

٤ – ويقول حجازى: (وبمقارنة الكلمات الأساسية المشتركة فى كل اللُّغات السامية، يستطيع الباحث أن يتبين مجموعة من السمات المشتركة المغرفة فى القدم، فكل اللُّغات السامية لا تتمايز أو تختلف أىَّ اختلاف من ناحية أصوات الراء واللام والنون والتاء والدال)[2].

– أقول: شىء مضحك! وهل كل لغات الدنيا تخلو لغة منها من هذه الأصوات وأكثر منها؟ إن جهاز النطق عند كل الناس فى كل عصر ومصر متقارب. أيها العربُ المخدوعون بما يقوله هُواةً من الغرب لا علماء – أفيقوا من نوم لا تزالون فى سُباته، منذ قرنين كاملين»!

٥ – ويقول: (وعلى العكس من هذا تكون الظواهر التى تختلف من لغة سامية لأخرى وذلك مثل ظاهرة أداة التعريف، فهى فى العربيّة (ال) سابقة على الاسم وهى

(١) يراجع فى تفصيل هذا الإجمال ما ورد فى المقالتين الأولى والثانية.

(٢) حجازى، علم اللّغة العربيّة – ١٩٥.

فى العبرية (الهاء) تسبق الاسم، وفى الآرامية (فتحة) طويلة تأتى بعد الاسم واختلاف هذه الظاهرة من لغة سامية لأخرى.. معناه أنها غير مورثة عن اللّغة السامية الأم، وأن كل لغة طورت لنفسها أداة للتعريف، فاختلفت بذلك أداة التعريف فى اللُّغات السامية المختلفة)[1].

– أقول: شكرا لك يا دكتور حجازى، فأنت رجل – كغيرك من العرب – تقدس ما يقوله هواةٌ من الغرب، وتقلده. والتقديس والتقليد – ينتهيان بالكاتب ألاّ يستخدم عقله – للشكّ والنقد – وإنما يستخدمه «للتبرير» – كما يفعل رجال الدين الإسلامى بعد القرن الرابع الهجرى، فقد أمْسَوْا مُقدّسين مقلدين – لما قاله السابقون، فباتُوا – مُبرّرين – لا شاكين، ولا ناقدين. والله الهادى – يوفق الجميع إلى حُسْن التبريز.

– أقول: هذا الاختلاف فى أداة التعريف «دليل واضح على أن هذه اللُّغات لا ترجع إلى لغة «أم»، وإنما هى لغات نشأت فى منطقة جغرافية، يجاور كل شعب فيها الآخر، فكان هناك اقتراض، وكان هناك اختلاف، ولو كانت منبثقة عن «أم» واحدة لما اختلفت أداة التعريف بينها هذا الاختلاف البَيِّن. بل لما كان لكل بنت «قَرْنَانِ» (أى: أداة تعريف) على حين كانت الأم المسكينة قرعاء!

– ومثل هذا الاختلاف.. اختلاف الضمائر، فضمير المتكلم المتصل بالماضى هو فى بعض هذه اللغات «التاء» وفى بعضها الكاف[2].

– ومثله: أن «الكاف» ضمير المخاطب فى اللّغة السامية الأم، وأن «التاء» كانت ضمير المتكلم، ثم استخدمت العربيّة «التاء» لكلا المتكلم والمخاطب[3].

– أقول: أين هى هذه السامية «الأم»؟ هاتوا لنا نقشا واحدا يدل عليها، لنصدق هذا الخيال الواهم، ثم «إن العربيّة (المقصود الفُصحى) بنت «عاقلة» فلم تلتزم بتراث أمّها المزعومة فى صوغها للضمائر!!

٦ – ويقول: (وقد أثبت البحث المقارن فى اللُّغات السامية، أن الأصل الثلاثى كامن وراء أكثر كلمات اللغات السامية، وفى نفس الوقت ظهر عن طريق المقارنة أن مجموعة من الكلمات يمكن أن ترد إلى أصول ثنائية)[4].

---

(١) المرجع السابق – ١٩٧.

(٢) المرجع السابق – ٢٠٤.

(٣) ( ) المرجع السابق – ٢٠٥.

(٤) المرجع السابق – ٢٠٥.

– أقول: وهل أكثر لغات الدنيا على غير ذلك؟ إن جهاز النطق «متقارب» وليس متماثلا عند البشر كلهم، وليس من مجموعة بشرية أصول معظم الكلمات عندهم ستة حروف. فلماذا نخصّ لغات هذه المنطقة العربيّة بهذه الظاهرة العامة؟ لا يحمل على ذلك إلا عناد علماء النقوش الغربيين فى أن نظريتهم عما سموه اللُغات السامية و«أمهن» صحيحة، وهى فى الحقيقة – محض هراء. ثم.. لا يحمل عليه إلا تقليدنا نحن – العربَ – لهم، وكأننا، وقد تخلينا – أولا – أخلاقيا عن المساهمة فى الحضارة، ثم عمليا، بالتقديس والتقليد والتبرير – قد حَرَمنا أنفسنا من موهبة الثناء والنقد!.

٧ – ويقول: (ووفق هذا المعيار يؤرخ أقدم النقوش الثمودية بالقرن الخامس قبل الميلاد، ويؤرخ أحدثها بالقرن الرابع الميلادى)[1].

– أقول: على هذا النصّ أربع ملاحظات هى:

الأولى: أن القرآن الكريم يذكر عن بلاد ثمود (فى شمال الجزيرة العربيّة) أنها كانت ذات عيون وجنات؛ قال صالح نبيهم عليه السلام: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [الشعراء: ١٤٦ – ١٤٨]. معنى ذلك أن بلادهم كانت فى القرن الرابع – لو صحت قراءة النقوش –ذات جناتٍ وعيون، فكيف لم يذكر ذلك عربُ الجاهلية فى نصوصهم؟ بل كيف لم يذكر ذلك امرؤ القيس فى شعره، وقد كان ولد فى مطلع القرن الخامس قبل الميلاد؟ فليس بينه وبينهم سوى قرن واحد. لو صحّ تاريخ النُقوش؟ أمْ أن امرأ القيس الذى توجه تلقاء بلاد الروم، بعد قتل أبيه يريد أن يعينوه بما يثأرُ به لأبيه، لم يلتفت إلى بلاد ثمود التى كانت على (مَرْمَى العصا) منه؟

الثانية: إن بين القرن الرابع قبل الميلاد، وبين مطلع نور الإسلام قرنين فقط، فكيف اختفت هذه العيون، وهذه الزروع خلال قرنين فقط؟ هل يتم تغير المناخ من مناخ خصب إلى مناخ جدب صحراوى، خلال قرنين فقط؟ الجواب... نعم. لأن هذين قرنين من قرون هواة الغرب، والذى لا يصدقهم هو متخلف... والذى يجحد ما يقولونه... يكفر.

الثالثة: أن الناقد – محمد بن سلام (ت: ٢٣١) ينكر على ابن إسحاق (ت ١٥١هـ) أن يذكر شعرا لعادٍ وثمود، فلو كانوا بهذا القُرب الزمنى من مطلع نور الإسلامى لما أنكر ابن سلام عليه ذلك، (إذا أورده ابن إسحاق فى السيرة النبوية العطرة) ولكان شعرهم مشهورا

(١) المرجع السابق – ٢١٩.

مذكورا بين عرب الفُصحى.. ولوجدت من ردَّ على ابن سلام وصوّب قوله هذا[1].فأين هذا الردّ – أيها الجهابذة – الذين معكم كامل الحق أن تقلدوا جهابذة الغرب.

الرابعة – أن ما قاله الدكتور حجازى – نقلا عن هواة النقوش اللغوية الغربيين – ليس فيه أى إشارة إلى أن لهذه النقوش علاقةً بالعربيّة الفُصحى، ولكن لو وجدت علاقة «فهى كعلاقة الأكادية أو الآرامية بالفُصحى، أى: هى علاقة تقارض الألفاظ، أو تشابهها، أو تشابه الأصوات ليس أكثر كما فصّلنا ذلك فى الرقم الأول، من هذه المقالة.

٨ – ويقول: (إن الخصائص اللغوية للنقوش الثمودية والصفوية واللحيانية تثبت أن كُتّابها كانوا من البيئة اللغوية العربيّة، وتثبت أسماء الأعلام الواردة فى هذه النقوش أن كُتّابها عرب جاهليون وثنيون نجد فيها أسماءا عربية مثل: حبيب وهذيل وقيس ومطر، كما نجد فيها أسماءا مركبة منسوبة إلى معبودات الجاهلية، مثل: عبدُ متاة، وزيدُ شمس، وعبدُ أيل، وعبدُ يَغوثَ.. وهكذا تثبت الخصائص اللغوية لهذه النقوش، وأسماء الأعلام الواردة فيها، وسلاسل النَّسب فيها أن كتاب هذه النقوش عرب، وأن لهجاتهم اليومية تدخل فى إطار اللهجات العربيّة)[2].

–أقول: أولا – إن وجود أسماء عربية فى هذه النصوص، ووجود أسماء معبودات جاهلية فيها – لا يعنى، بحال موجبة، أن لهجات هؤلاء الأقوام تدخل فى إطار اللهجات الجاهلية – المنسوبة إلى الفُصحى لثلاثة أسباب:

(أ) لأن الله تعالى عندما «أنسى» عرب الفُصحى لغتهم التى كانوا يتكلمونها، وأثبت مكانها الفُصحى (كألفاظ غالبة وكأصول)[3] لم يُنسِهم أسماء قبائلهم، ولا أسماء ما كانوا يعبدون، وإنما أنساهم اللّغة كألفاظ تعبّر عن الأفكار والوجدان، وكنظامين: صرفىّ وتركيبىّ.

(ب) ولأن تشابُهَ ألفاظ أو تماثلها.. لا يعنى أن اللهجتين (أو اللغتين)، مشتقةٌ إحداهما من الأخرى، أو متولدة إحداهما عن الأخرى، (كما فصّلنا فى الرقم الأول والرقم الثانى من هذه المقالة).

(ج) ولأن لهجات الفُصحى السبع التى جَمَعَ منها اللّغة الفُصحى علماءُ اللّغة إنما هى «لغة واحدة» لا تختلف بأكثر من واحد بالمئة من الألفاظ، كأن تُسمّى قبيلة القمر «حنطة»

(١) طبقات فحول الشعراء ص ١١.

(٢) حجازى – ٢٢٣، ٢٢٤.

(٣) انظر مقالتنا الأولى تحت عنوان «اللّغة العربيّة أإلهام هى أم مواضعة واصطلاح؟»

وتسـمِّيهِ أخرى «بُرًّا»، وتكون تسمية ثالثة له «قمحا». وكل ما بينهما من اختلاف بعد هو فى «منحى» الصوت، كأن تقول قبيلة: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤] باستطالة الألـف، والأخرى بالميل به نحو صوت الياء، كما يلفظ الألف فى لبنان حتى الآن، أو أن تقول قبيلة: سَقْرٌ، وأخرى: زَقْرٌ، والثالثة: صَقْرٌ، وهذا النوع الأخير قليل جدا جدا.

– أمـا مـا كان فى لهجات هذه القبائل من (الكشكشـة أو العنعنـة..)[1] فلم تأخذ به الفُصحى، وإنما سـجله العلماء كرصد علمى ولكن لا تستسيغه الفُصحى التى استقر أمثلُها فـى مكـة عند قريش، والتى نزل بهـا القرآن الكريم – نزل بها أكثـره، لأن مكة كانت حاضرة الشمَال، وكان العرب يَفِدون إليها فى مواسم الحج، وعلى هامش موسم الحج كانت تقوم تجارة، وأسواق للشعر، كسوق عُكاظ، فكانت قريش – المتحضرة – تأخذ من القبائل الوافـدة، أعذبَ الألفاظ، مما جدَّ عندهم من اشـتقاقات (لأن أصل اللهجات فى الشـمال هـو لغـة واحدة ألهمهم الله تعالى إيّاها كما قرّرنا)، وكانت القبائل تحاول ألا يبتعد منحى أصواتها عن منحى صوت قريش (= لهجة قريش)، لأنهم لا يستغنون عن التعامل معها.

– فكان التقارب كبيرا، يدل على ذلك أن القبائل العربيّة كانت تتناشـد أشـعارا فى سوق عُكاظ لا يختلف بعضها عن بعض، بدليل ما وصل إلينا منها، وهو كثير، فهو بلغة واحدة، بشـكل عامّ، وبدليل أن هذه القبائل كان يُفهم بعضها أشـعار بعضها الآخر، دون أدنى لَبْس. أعنى.. قبائل عَرَبِ الشَّمال.

– بـل.. وبدليل أن القرآن الكريم كان مفهومـا للجميع، مع اختلاف قليل فى منحى الصـوت أحيانـا، وفى قليل من الكلمات مثل قوله تعالـى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٤١﴾ [هـود: ٤١]، فقد (قرأ مجاهد: مجريها ومرسـيها) بلفظ اسم الفاعل.

–أليس هذا: «كافيا ليقنعنا أن لهجات الأقوام الأخرى – فى جنوب الجزيرة العربيّة، وعلـى أطرافها – إنما هى لهجات أخرى تختلف عـن لهجات الفُصحى؟ ومابينها وبين الفُصحـى أو لهجاتها، إنمـا هو من باب التقارض أو التقـارب – الذين يقعان حتى بين اللُّغات المتباعدة، كما بيّنا فى الرقم الأول، فكيف بلغات منطقة جغرافية واحدة؟

(١) الكشـكشـة.. وهـى فى قبـيلتى ربيعـة ومضر، مثل: عيناش، بدل: عينـاك، والعنعنة فى قبيلة تميم، مثل: (أعن ترسّمتَ من أسماءَ منزلةً) أى: أأنْ ترسمت، إذ يُبدلون بالهمزة عينا. وهى لهجات مذمومة، مطّرحة لا يعمل بها.

وكـونُ الفُصحى لم تختلف ألفاظها –اختلافا كاملا– مـن ألفاظ هذه اللُّغات المحيطة بمنطقتهـا فهذا.. مـا أجبنا عليه بالتفصيل فـي المقالة الثانية – من هذا القسـم من هذا الكتاب، وهو أن إرادة الله تعالى قضت ألاّ تأتى الأشياء على الأرض. (ومنها اللّغة الفُصحى الواقعـة إلهاما). قفزةً فى فراغ، وإنما تكون شـبيهة بالواقـع، وإن كانت – بخصائصها – تعلو على الواقع تعلو على خصائص اللُّغات الأرضية كلها. وإن كانت لا تفارقها مفارقة النقيـض للنقيض، وهـل القرآن الكريم – المعجز – نزل بألفاظ غـير ألفاظ الفُصحى التى يستعملها العرب وإن لم تكن مأخوذة من الفصحى؟ وجاء بها بطريقة – مخصوصة – يعجز عنهـا الإنس والجنّ، القرآنُ من الوجهة الأولى عربيّ اللّغة وإن لم يأخذ ألفاظه من العربية الفصحـى – لأنّ القـرآن كلام الله تعالى، وكلام الله قديم، واللغة العربية حادثة من حيث وجودها على الأرض. ومن الوجهة الثانية مفارق لما يستطيعه العرب (والإنس والجن عامةً) فى استعمالهم للغة. من حيث طريقة ضمّ الألفاظ. بعضها إلى بعض.

– هذه هى مشيئة الله تعالى فى أمور الدنيا كلها، نستثنى بعض المعجزات.

– وبعـد، فإنى أرى أن ما سـبق فـى هذه المقالة، كافٍ لدحض مزاعـم علماء النُّقوش اللغوية – الغربيين الذين يرون أنه كان فى زمن سحيق يسبق التاريخ لغةٌ ساميةٌ أُمُّ اللُّغات السـامية، ومن السـاميات العربيّة، لأن حكاية أن نوحا عليه السـلام كان له ثلاثة أبناء هم: – سامٌ وحامٌ ويافث – لا تقوم على خبر صحيح مُوَثّق. وما فى التوراة من أخبار. وقد كتبت فى معظمها، بعد وفاة موسـى عليه السـلام، بسبعة قرون، لا يصح أن يكون مصدر علم يقينيّ وإلاّ.. فليأتوا بنقش واحد من هذه اللغة الأُمّ – المزعومة– !.

– فالعربيّة الفُصحى هى لغة ألهمها الله تعالى عرب الشـمال، لكى تكون قادرة على حَمْل القرآن الكريم. ونسبتها هى إلى العرب وإلى الفصاحة، لا إلى ما يُسمى «ساما» ويُزْعَمُ أنـه من أبناء نوح عليه السـلام.ولكنّ الأمّة التى عَشْـعَشَ والتقليـد للقدامى فى أعماقها.. ونتيجة لذلك كان «التبرير»، ونسـيَتْ الشـكّ والنقد – اللذينْ أمرهـم بهما القرآن، فقال تعـالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾، أجل عشعشت هذه المدمرات الثلاثة – التقديس والتقليد، والتبرير، منذُ نهاية القرن الرابع الهجرى، فى أعماقها – ثم عشعشـت، منذُ مطلع القرن التاسـع عَشَرَ – تقديسا وتقليدا، للغرب، وتبريرا لما يزعمونه، عن العرب والإسلام. وإن كان باطلا

صُراحـا، وكُفـرا بَوّاحا- ! ، والتقديس – هنا – هو لغـير مقدس، فالقدوس هو الله تعالى – والمقدس هو الرسول والقرآن فحسب.

– هذه الأمّة.. صدّقت أكذوبة قالها رجل مُتَصَهْيِنٌ، بُعَيْدَ منتصف القرن الثامن، سماها (نظريـة) – وما هى إلا حُلُمٌ باطل، وخيال واهـم، وتنكّب للحق التاريخى – فى حقيقة اللغة الفصحى – المبين.

انتهى القسم الثانى – بتوفيق الله وفضله..

obeikandl.com